مراحل تطور النثرية في الشعر العباسي

يوســـف جبـــار عليـــوي

د.محمـــد تـــقـــي جـــــون

المقـــدمـــة:

الحمدُ لله ربّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على سيد المرسلين محمد(ﷺ) كان الادب العربي في العصر الجاهلي فقط شعراً ، اما في العصر العباسي أصبح الادب ينقسم شعر ونثر وأسباب ذلك التطور والأزدهار في مختلف مجالات الحياة الفكرية والسياسية والأقتصادية والاجتماعية وهذه المجالات بطبيعتها تحتاج إلى تدوين وتسجيل مما أدَّى ذلك إلى تفوق النثر على الشعر .

تناولت في بحثي النثرية في الشعر العباسي وجذورها التي كانت في العصر الاموي ، ثم تناولت تراجع أو أنتكاس النثرية في عصر الفحول حيث ظهر شعراء مثل المتنبي فعادوا للشعر هيبته فأصبحت الألفاظ جزلة ، ومن ثم تناولت بعدها طغاوة النثرية التي سادت في القرن الرابع فصعوداً وتناولت ايضاً اسباب هذه الطغاوة منها عدم الاهتمام بالشعر والشعراء ويعود السبب لجوانب متعددة منها جهل الحكام والولاة .

بداية النَّثرية في العصر العباسي

شهدَ العصر العباسي تطوراً في مختلفِ مجالات الحياة الأجتماعية والسياسية والفكرية والأقتصادية،وهذه المجالات لها الأثر الواضح على الشعر العباسي،فمثلاً الجانب الأقتصادي ولَّد اللهو والحياة المترفة في هذا المجتمع،وكذلك الجانب الأجتماعي أدَّى إلى أختلاط المجتمع العربي مع المجتمعات الأخرى الفارسية واليونانية والهندية وهذا الأختلاط أثَّر أيجاباً وسلباً على الشَّعر العباسي بنقل الألفاظ الأجنبية وأستعمالها في التعامل اليومي عند العرب،أمَّا الجانب الفكري فكان الأبرز من هذه الجوانب؛والسبب في أهميتهِ أنتشار الترجمة،فقد ساعد على الأطلاع على آداب وعلوم الأمم الاخرى.[١]

وعندما نتطرق لشعراء الكوفة في العصر الأموي نلاحظ التجديد بدأ عندهم،فمثلاً الشاعر الولَّيد بن يزيد في بداية القرن الثاني الهجري تزعَّمَ حركة تجديدية في الشعر،فهو أول من تناول الأباحة والتعبير الحر وكذلك

(١) ينظر : أتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني : محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف ١٩٦٣ – القاهرة .

تناول موضوع الخمريات في قصائدهِ والتي تتناول حصراً الخمر دون التطرق إلى موضوعاً آخر؛والسبب يعود إلى هذا التجديد في شعر الولَّيد بن يزيد لوجود أحتكاك بين العرب في الكوفة مع الأعاجم،ويرى الدكتور مصطفى هدارة أنَّ السبب في تمرد شعراء الكوفة لأنها عامرة بالحانات والأديرة وكثرة اللهو والعبث.[٢] فمثلاً نتناول رأي الطالبيتين حملاوي مروة ولعور أيمان:"وقد كان شعراء الكوفة هم السباقون إلى الخروج عن تقاليد القصيدة الجاهلية وذلك منذ بداية القرن الثاني للهجرة،وكان من بينهم الولَّيد بن يزيد الذي نادى بحركة تجديدية حمل لواءها وأخذَ يشجع على أستمرارها، ذلك أنه أول من فتح باب الإباحة والتعبير الحر عن مختلف نوازع نفوسهم وشهواتهم،كما أنه أول من أوجد في الشعر العربي القصيدة الخمرية التي تقصر نفسها على الخمر ووصفها وأستشعار تأثيرها،ووصف سقاتها ومجالسها وندمائها،ليس هذا فحسب ولكنه أختار أيضاً لصياغة شعره اللغة المألوفة في الحياة اليومية فأقترب من الشعبية إلى حدٍ بعيد،وأغرى الشعراء بهجر الصياغة القديمة والأسلوب الجزل والرصين" [٣]

إذن هذا الأحتكاك بين العرب والأجانب وخاصة الفرس أدَّى إلى ظهور ما يسمى الشعراء المولَّدون في العصر العباسي،وهؤلاء المولَّدون يتقنون اللغة العربية كما أنَّهم في الوقت نفسه يحسنون لغتهم،وهذا الأتقان أو الأستحسان في اللغتين جعلهم يمتازون بشيء جديد لم يكن معروفاً قبل العصر العباسي[٤]

إنَّ هذا التطور الحاصل في الشعر ظهرتْ بداياتهُ الأولى على يدِ هؤلاء الشعراء المولَّدون الذين يرجعون الى أصول فارسية،فمثلاً الشاعر بشار بن برد في رأي النقاد هو أول من ترك ذكر الأطلال في القصيدة العباسية وهذا رأي عز الدين أسماعيل [٥] إذ يقول بشار:

(الخفيف)

كيفَ يبكى لمحبسٍ في طُلُــولِ مِنْ سيقضي لحبس يوم طويل

إنَّ في الحشرِ والحسابِ لشُغْلاً عن وُقوفٍ بكلّ رسمٍ مُحِيــل[٦]

ولم يتوقفوا عند هذا الحد من التجديد،وإنَّما أخذَ الشعراء المولَّدين يسخروا منْ الأطلال وهناك آراء ترى أنَّ السخرية سببها الشعوبية التي ظهرت واضحة في شعر بشار وأبي نواس والغرض من هذه السخرية التقليل من

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ١٤٦.
(٣) بنية القصيدة العباسية عند الشعراء المولدين : بشار بن برد وابي نواس – أنموذجاً – اعداد الطالبتين حملاوي مروة ولعور أيمان : ١٦ .
(٤) ينظر : أتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني : محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ – القاهرة : ١٤٨ .
(٥) ينظر : الرؤية والفن :عز الدين اسماعيل،المكتبة الاكاديمية ١٩٩٤: ٢١٣ .
(٦) ديوان بشار بن برد : شرح محمد الطاهر بن عاشور، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، القاهرة لجنة التأيف والترجمة والنشر : ١٥٢/٤.

أهمية اللغة العربية المتمثلة بالشعر الجاهلي،وقد كانت المقدمات الغزلية والوقوف على الأطلال شرط أساسي في القصائد الجاهلية وخاصة في غرض المدح والدليل على ذلك عندما جاء الشاعر كعب بن زهير ووقف أمام الرسول (ﷺ) وألقى قصيدته البردة وكانت فيها مقدمة غزلية ذكرها ولم يتحرج من ذلك،ثم تطرق إلى مدح الرسول والإسلام،على الرغم من أثر الإسلام في الشعر.(٧)

ويمكن الأشارة أنَّ النقاد في العصر العباسي على الرغم من عدم تقبلهم هذا التجديد إلاّ أنهم أعطوا الحق فيما يخص الرحلة والتنقل والوقوف على الأطلال وهم في وقتهم هذا يجالسون الممدوح فيمكن ذكر قول ابن رشيق القيرواني:"وليس في زماننا هذا ولا من شرط بلدنا خاصة شيء من هذا كله،إلاَّ ما يعد قلة؛فالواجب أجتنابه،إلاَّ ما كان حقيقة،لا سيما إذا كان المادح من سكان بلد الممدوح:يراه في أكثر أوقاته،فما أقبح ذكر الناقة والفلاة حينئذ" (٨)

ومن الأمور التي ظهر التجديد واضحاً فيها هو ترك القصائد الطويلة،فهي لا تنسجم مع حياة هذا العصر،فقد أنتشر الغناء الذي يحتاج إلى مقطوعات شعرية قصيرة لها وحدة عضوية وموضوعاً واحداً وألفاظها بسيطة مألوفة تستخدم فيها اللغة اليومية لكي يتمكن المغني أو المغنية من حفظها ويساعد قصرها على بقائها في أذهان المستمع وأنتشارها يكون أسرع،وهؤلاء المغنيون والمغنيات أكثرهم فرس تصعب عليهم الألفاظ الجزلة (٩)

وقد أستعمل الشعراء اللغة السهلة المألوفة التي يتعامل بها الناس في حياتهم،وكان من أبرز الشعراء في هذا المجال ابن الرومي وأبي العتاهية،وشملت هذه اللغة شعر جميع شعراء المولَّدين في العصر العباسي.

فعندما نتناول مثلاً شعر بشار بن برد نلاحظ في شعره تمرد على القصيدة الجاهلية،فيرى الطالب فيصل حسين طحيمر العلي في رسالتهِ الذي تناول الشعر العباسي فيها التمرد حيث تطرق إلى الشاعر بشار بن برد إذ يقول عنهُ:" يُعد بشار بن برد رأس مذهب المحدثين، وهو أول من فتق البديع من المحدثين،وأول من قاد ثورة أدبية عربية،وهو أول مِنْ رسم للشعراء المولَّدين طرائق جديدة،وخطَّ لهم سبلاً فنية أخذ كل شاعر منهم جانباً منها،وذلك من خلال نظريته التي أبان عنها عندما قيل له:بم فقت أهل عمرك،وسبقت أهل عصرك،في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه؟ فقال:لأني لم أقبل ما تورده علي قريحتي ويناجيني به طبعي،ويبعثه فكري،ونظرت إلى مغارس الفطن ومعادن الحقائق،ولطائف التشبيهات،فسرت إليها بفهم جيد،وغريزة قوية فأحكمت سبرها وأنتقيت حرها،وكشفت عن حقائقها،وأحترزت من متكلفها،ولا والله ما ملك قيادي قط الإعجاب

(٧) ينظر : اتجاهات الشعر العربي: محمد مصطفى هدارة،دار المعارف ١٩٦٣- القاهرة.
(٨) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ابن رشيق : (أبو علي الحسن القيرواني) ، تح : محمد محي الدين عبد المجيد ، دار الجيل ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨١م ، ١ / ٢٣٠ .
(٩) ينظر: بنية القصيدة العباسية عند الشعراء المولّدين : بشار بن برد وابي نواس – أنموذجاً – اعداد الطالبتين حملاوي مروة ولعور أيمان : ٥٦ .

بشيء مما آتي به،فبشار هنا يتخلى شعره عنْ خصيصة من أبرز خصائص الشعر الجاهلي،وهي عفوية التعبير عن المشاعر والأحاسيس،ليستبدلها عملاً فكرياً له ضوابطه،فهو لا يقبل كل ما تورده عليه قريحته،وينظر إلى كلّ ممارسة شعرية جديدة كأنها بداية وليست نهاية،وهذه تؤلف ما يمكن تسميته بنظرية بشار للأدب العباسي." (١٠)

من خلال هذا النص،نلاحظ التمرد،أو التجديد،ظهر بتخلي بشار عن عفوية التعبير،وأستبدالها بعمل له ضوابط وشروط مما يدل على أنه أخذ يتعامل مع الشعر، كما يتعامل أصحاب المؤلفات تقسيم كتبهم على ضوء منهج منظم لا يعتمد على المشاعر والأحاسيس،وإنَّما يعتمد على الفصول المنظمة.

لذلك يرى الدكتور عثمان موافي في هذا المجال فيقول:"ويبدو أنَّ هذا كان مذهب المحدثين من الشعراء والنقاد آنذاك،وقد دفعهم إلى المناداة به،رغبتهم في أنْ تصبح القصيدة الشعرية،أشبه ببعض فنون النثر،كالرسالة والخطبة،في وحدة الموضوع،وتلاحم أجزائها وتسلسل معانيها،وأرتباط بعضها ببعض" (١١)

وقد تناول الدكتور عثمان موافي أيضاً ظهور النثرية في الشعر العباسي فيرى تداخل النثر مع الشعر ويكون واضحاً في شعر الكتَّاب إذ يقول في هذا المجال:" ولاحظنا ظهور هذا،بشكل واضح في بيئة الكتَّاب،الذين يعدون من أمهر الأدباء، بأصول الصناعة الأدبية،وكانوا يتميزون بهذا،من غيرهم من الأدباء والرواة.(١٢)

أمَّا الجاحظ فيقول عن الكتَّاب:"ولم أرَغاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب،ولم أرَ غاية رواة الاشعار إلاَّ كل شعر فيه غريب،أو معنى صعب يحتاج إلى الأستخراج،ولم أرغاية رواة الاخبار،إلاّ كل شعر فيه الشاهد والمثل.

ورأيت عامتهم – فقد طالت مشاهدتي لهم – لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة،وعلى الألفاظ العذبة،والمخارج السهلة والديباجة الكريمة،وعلى الطبع المتمكن،وعلى السبك الجيد،وعلى كلِّ كلام لهُ ماء ورونق،وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم،وفتحت للسان باب البلاغة،ودَّلت الاقلام على مدافن الألفاظ،وأشارت إلى حسان المعاني.

ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتَّاب أعمّ،وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر" (١٣)

---

(١٠) التمرد في شعر العصر العباسي الأول ، رسالة الطالب فيصل حسين طحيمر: ١٠٨.
(١١) في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد الأدبي ، د.عثمان موافي ، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٠ : ١/ ٥٣.
(١٢) في نظرية الأدب : عثمان موافي : ١٧٥.
(١٣) البيان والتبيين : الجاحظ .

وأيضاً تناول الدكتور عثمان موافي الكتَّاب وطريقتهم في كتابة الشعر فيقول:

"ومن ثم،فليس بغريب أنْ نرى كثيراً من هؤلاء الكتَّاب يقرضون الشعر وينشدونه، وتتفتق مواهبهم الفنية،عن طرائف وبدائع،في هذا الفن القولي المنغم.

وهذا ما دعا ناقداً كابن رشيق إلى وصف أشعارهم برقة الطبع وحلاوة الألفاظ، ولطف المعاني،والتفنن البديع فيها".(١٤)

وتطرق ابن رشيق يقول:"والكتَّاب أرقُّ الناس في الشعر طبعاً،وأملحهم تصنيفا،وأحلاهم ألفاظاً،وألطفهم معاني،وأقدرهم على تصرف،وأبعدهم من تكلف" (١٥).

وقد تناول الدكتور عثمان موافي رأي ابن رشيق بالكتاب فيقول :"وقد أحسَّ ابن رشيق،أنَّ هؤلاء الكتَّاب الشعراء،لا يقولون الشعر في الأغلب الأعم،رغبة في أحد، أو رهبة من أحد،أي لا مدحاً ولا هجاء،كسائر الشعراء،وإنَّما غرضهم من ذلك ،التظرف والتطرف.

ولذا فهو يطالبنا،بأن لا نحاسبهم محاسبتنا للشعراء الكبار،وأن نترفق في نقدنا لأشعارهم.

ولو ضربنا صفحاً عن هذا الترفق،ونظرنا بعين ناقدة فيما قاله ابن رشيق عن غرضهم من قول الشعر وأنشاده،لأ تضح لنا،أنَّ ذلك الغرض قد أدَّى إلى أتسام وأنصاف شعرهم،ببعض السمات،التي تختلف كثيراً،عن سمات الشعر العربي القديم.

فقد كان في أغلبه شعراً وجدانياً ذاتياً،يُعبر عن موضوعات وجدانية تتصل بذات الشاعر،ونفسه أتصالاً وثيقاً.وقد تأثر في صياغته الفنية،ببعض موضوعات النثر،وأصولها الفنية.

من ذلك،موضوع الأخوانيات،الذي كثر تناول هؤلاء الشعراء،له في أشعارهم .

ومن أصدق الشواهد الشعرية دلالة على ذلك، قول ابن العميد،في رسالة بعث بها إلى صديقه أبي الحسن العباسي،يصف حاله وزمنه،الذي غير من أخلاق بعض الأصدقاء فجعلهم لا يحافظون على عرى الصداقة،ولا يراعون حرماتها،ويميل في عرض هذه المعاني إلى السرد أو الحكاية معبراً عن ذلك،في لغة تقريرية،ذات دلالة مباشرة في التعبير:

(البسيط)

أشكو إِلَيكَ زَمانا ظلَّ يعركنَـي

(١٤) في نظرية الادب : د. عثمان موافي : ١٧٦ .
(١٥) العمدة ،ابن رشيق القيرواني .

عَرِكَ الأَديمَ وَمن يعدي عَلى الزَمنِ

وَصاحِباً كنتُ مَغبوطا بِصُحَبتهِ

دَهراً فَغادَرَني فَرداً بِـلا سَكَـنِ

هَبَّت لهُ ريح إقبالٍ فَطارَ بهـا

إلى السُرورِ وألجاني إلى الحَزنِ

نَأى بِجانِبهِ عَنّي وَصَيَّرنـي

مَعَ الأِسى وَدَواعي الشَوقِ في قَرَنِ

وَباعَ صَفَو وَدادٍ كنت أَقصره

عَلَيهِ مُجتَهِداً فـي السِـرِّ والعَلَـن

وَكانَ غالي بِه حِيناً فأرخَصه

يامن رَأى صَفو ودٍ بيـعَ بالثمـن

إنَّ الكِرامِ إذا ما أَسَهلوا ذَكرَوا

مَنْ كانَ يألفَهمُ بالمنَزِلِ الِخشنِ " (١٦)

أمَّا التداخل بين الشعر والنثر في العصر العباسي أخذَ شكلاً آخر،فأصبح الشعراء كتَّاباً وأصبحَ الكتَّاب شعراء؛لذلك أخذّ الشعر من صفات النثر وأخذَ النثر منْ صفات الشعر وهذا واضح في شعر الكتَّاب فقد تناول شعرهم الدكتور عثمان موافي في كتابهِ من قضايا الشعر والنثر:"لكننا هنا،نجد أنفسنا أمام قصيدة،ذات موضوع واحد،وغالباً ما يكون موضوعا ذاتياً،وجدانياً كعتاب بين صديق وصديق،أو التعبير عن حرفة شوق،أو شكوى حال،وهي بهذا تشبه بعض فنون النثر الفني كالخطبة أو الرسالة،والأخوانية بنوع خاص.

ولو نظرنا إلى هذه القصائد من ناحية المعنى،لوجدنا شعراءها يقفون أمامه طويلا،مفصلين فيه تفصيلاً بعيداً،محاولين بذلك،مخاطبة عقل السامع،أو القارىء ،وفكره،لا شعوره ووجدانه.ومن ثم يغلب على هذا

(١٦) في نظرية الادب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي : د. عثمان موافي ، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٠ : ١/ ١٧٥- ١٧٦- ١٧٧- ١٧٨.

الضرب الشعري،الأقناع لا التخييل.والإفاضة في عرض المعنى،لأقناع السامع، تعد من أخص خصائص النثر." (١٧)

ومن بدايات النثرية في الشعر يرى الدكتور عثمان موافي فيقول:"ومن قبيل هذه الموضوعات النثرية،التي تناولها هؤلاء الشعراء الكتَّاب في أشعارهم،وأصبحت تبعا لهذا،من موضوعات الشعر العربي،الشعر التعليمي،الذي هو عبارة،عن نظم لموضوعات العلوم والآداب.

ويظهر أنَّ أول من عنى بهذا الفن الشعري،منهم،أبان بن عبد الحميد اللاحقي، ومما يصور ذلك عنده،مزدوجته،التي نظم فيها كتاب كليله ودمنة شعراً،وقد جاء فيها،قوله متحدثاً عن فلسفه هذا الكتاب والغرض من تأليفه:

(الرجز)

هذا كِتَـابٌ أَدبٍ ومُحْنَـــهْ

وهْو الذي يُدْعى كليلَة ودمنةُ

فيهِ دِلالاتٌ وفيـهِ رُشْـــدُ

وهَو كتابٌ وضَعَتْهُ الهنـــد

فوصفوا آداب كُـلَّ عالـمِ

حِكايةً عنْ ألْسنِ البَهائَـــم

فالحكماءُ يَعْرِفُـون فَضْلَـهُ

والسَّخَفَاءُ يشتَهْونَ هَزْلُـهْ

وهوَ على ذلك يسيرُ الحفظ

لذَّ على اللَّسان عند اللفظِ " (١٨)

(١٧) في نظرية الادب :د. عثمان موافي : ١٨٩ .
(١٨) ينظر:في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي : د. عثمان موافي : ١٨٩ – ١٩٠.

نلاحظ مِنْ خلال تناول الدكتور عثمان موافي لشعر هؤلاء الكتَّاب يؤيد ظهور النثرية في الشعر العباسي بصورة عامة،وشعر هؤلاء الكتَّاب بصورة خاصة إذ تتميز قصائدهم بأنَّ لها موضوعاً واحداً ويخوضون،في المهن بالتفصيل مخاطبين العقل.

وخلاصة القول فيما يتعلق في بداية النثرية في العصر العباسي كانت أبرزها الوحدة العضوية،فقد أعتمدها الشعراء نتيجة للتأثر بالنثر،وكذلك منْ الأمور التي دخلت للشعر عن طريق النثر هو الألفاظ البسيطة التي أستعملها الشعراء ومن،الأسباب التي جعلت الشعر يتأثر بالنثر هو كثرة الكتَّاب في العصر العباسي؛لذلك تأثر الشعراء بهم وأصبحت قصائدهم الشعرية لها فصول كفصول الكتابات النثرية،أضف إلى ذلك نجد الكتَّاب قاموا بنظم القصائد لإظهار أمكانيتهم على كتابة الشعر.

أنتكاس النثرية في عصر الفحول

عادَ الشعر إلى قوتهِ من حيث أختيار الألفاظ تحديداً في القرن الثالث الهجري وإلى منتصف القرن الرابع الهجري،وفي هذا المجال نتناول رأي الدكتور محمد تقي جون فيقول:"في القرن الثالث وإلى نحو منتصف القرن الرابع " ٣٥٤هـ "،أرتقى الشعر بالأفذاذ الفحول:أبي تمام "ت ٢٣٢هـ "والبحتري"ت ٢٨٤ هـ"والمتنبي" ٣٥٤ هـ "،وأستعاد الشعر الكثير من ملامحهِ وأصالته العربية ولا سيما العناية بالألفاظ في التعبير الشعري،فأرتقى على

شعر المولَّدين الذي أسس له الشعراء العباسيون الأوائل ولا سيما العجم،وبلغ قمته في الأداء والإبداع.ولكنه لمْ يصل في لفظيته إلى مستوى شعر الجاهليين والأمويين،فكان بين الحضري والبدوي،وصار هو المطلوب ذوقاً من الناس،وأسلوباً منْ النقاد كما صرَّحَ بذلك الجرجاني،طالباً من الشاعر عدم الإسفاف إلى الشعر السهل وعدم تكلف الشعر الوعر." (١٩)

يشير الدكتور محمد تقي جون في هذا النص لشعر أبي تمام والبحتري والمتنبي فيه عودة إلى الشعر الجاهلي وخاصة العناية بالألفاظ في التعبير الشعري، وأنَّ هؤلاء الشعراء أرتقوا عن الشعراء المولَّدين،وفي الوقت نفسه يشير أنَّ هذا الشعر لمْ يصل إلى مستوى الشعر الجاهلي والأموي. وأيضاً تطرق الدكتور محمد تقي جون لشعر المتنبي يقول فيه"وبلغ المتنبي بهذا الشعر قمته،فصار الهدف الذي سعى كل شاعر بعده ليبلغه دون جدوى،فمثَّل المتنبي القمة الأعلى التي لا يليها غير السفح،فنزل الشعر بعده متسارعاً متراجعاً،فتأخر الشعراء عن رتبة البلغاء وتأخر المنظوم عن رتبة المنثور.وأعترف ابن وكيع التنيسي الذي جاء بعد المتنبي بأن الناس زهدوا في الشعر العميق،فعلى الشاعر كتابة شعر قريب من الأفهام،خفيف لذيذ ،فالشاعر أصبحَ كالمطرب عليه أستمالة الناس لسماعه فقط دون الحاجة إلى الثقافة الضخمة،فأشر انتهاء مرحلة الفحول والشاعر المثقف.وعادت في القرن الخامس والسادس السهولة مع الركاكة والنثرية الجافة،إلاَّ بعض الشعراء الذين حققوا مستوى مقبولاً من الشعرية دون بلوغ مستوى الشعراء المولَّدين"في مجال المعنى أو الفحول "في الصياغة والشعرية.

يلاحظ من قائمة شعراء القرن الثالث قلة الشعراء النابهين،فهم يعدون على اليد،ويرد طه حسين ذلك إلى ضعف الشعر وقوة النثر.بينما يزداد عدد الكتَّاب النابهين،وهؤلاء الكتَّاب ينافسون الشعراء فيختلفون إلى القصور،ويتصلون بالأمراء. كما أن الشعراء أخذوا المعاني والصور من الكتَّاب،وقبلاً كان الكتاب يأخذون المعاني والصور من الشعراء".(٢٠)

ففي عصر الفحول تكون القافية قوية والتي تساعد على زيادة النغم؛لذلك نجد الشعرية في عصر الفحول مثل المتنبي،فالقافية تكون صارمة ولذيذة،ويمكن أنْ نشير هنا إلى ما قاله الدكتور محمد تقي جون في أهمية القافية عند الشعراء الفحول عكس القافية في شعر المولّدين التي أصبحت كالفاصلة في النثر فيقول:"تعمل القافية على زيادة النغم الذي يصنعه الوزن الشعري،وتنظيم وضبط الوزن الشعري من خلال طرقات حرف الروي الثابتة الزمن".فالقافية جزء من الوزن إلاَّ أنها جزء مثير ومنظم للأيقاع،ولا يستطيع إلاّ الشاعر من أستثمار القافية نغمياً بجعلها جزءاً من الوزن ومتفاعلة معه ومضيفة إليه ،وعدا ذلك تكون مجرد

(١٩) خلاصة الأدب العباسي أدب الحضارة والحداثة : الدكتور محمد تقي جون ، مؤسسة دار الصادق الثقافية ط١ ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧ : ١٨٥.
(٢٠) خلاصة الأدب العباسي أدب الحضارة والحداثة ، الدكتور . محمد تقي جون ،مؤسسة دار الصادق الثقافية ، ط١ ، ١٤٣٨ – ٢٠١٧ : ١٨٥ – ١٨٦.

نهاية غير طبيعية للبيت الشعري،ويكون حرف الروي فائضاً عن الحاجة أو مبعثراً للايقاع.والنوع المطلوب من القوافي يكون صارماً وقوياً ولذيذاً،فالآذن تنتظر القافية بفارغ الصبر لتطرب بضرباتها المدوية في أعماق النفس. ومن أمثلة ذلك قول لبيد بن ربيعة:

(الطويل)

تَمنَّى ابنَتَايَ أنْ يَعيشَ أبُوهُمــا وَهْل أنا إلاَّ منْ رَبيعَةَ أوْ مضَـرْ

فإنْ حانَ يومٌ أنْ يَمُـوتَ أبُوكُمـا فلا تَخْمِشا وَجْهاً ولا تَحلِقا شَعَـرْ

وَقولا هُوَ المَرْءُ الذي لا خليلــهُ أضاعَ ، ولا خانَ الصَّديقَ ولا غَـدَرْ

إلى الحَوْلِ ثمَّ اسمُ السَّلامِ علَيكمُا وَمَنْ يَبكْ حَولاً كاملاً فقـد اعتــذرْ[٢١]

وكقول المتنبي:

(البسيط)

طَرَدتُ من مصرَ أيديَها بأرْجِلهـا حتى مَرَقْنَ بَها مِنْ جَوْشَ وَالعلَـمِ

تَبرى لَهُن نَعَام الدّو مُسْرجَــةً تُعارِضُ الجُدُلَ المُرخْـاةَ باللَّجُـمِ

تَخدي الرَّكابُ بنا بيضاً مشافِرُهَا خضْراً فَرَاسُنَها في الرُّغلِ والَينَم

مَكعْومَةً بسياط القَوْم تَضْربُهـا عن منبتِ العشبِ نبغي منبت الكرمِ[٢٢]

فأنت تشاهد القافية قوية مكينة ولذيذة تفعل بالنفس الطرب وكإنها تضيف معنى على المعنى" [٢٣]

والجدير بالذكر الاشارة الى شعر الفحول في العصر العباسي الذي عادت الجزالة اللفظية وقوة الموسيقى الجاهلية إلاَّ إنَّنا نجد الألفاظ اليومية والأعجمية وأعتمادهم على الوحدة العضوية والأفكار الفلسفية؛والسبب في ذلك هو ذوق العصر قد فرض على الشاعر مهما كانت ثقافته،وأطلاعهُ على الشعر النموذجي "الشعر الجاهلي"إنْ يستعمل الألفاظ السهلة التي يفهمها جميع أفراد المجتمع على مختلف المستويات الفكرية.

(٢١) ديوان لبيد بن ربيعة: دار الصادر بيروت : ٧٩ .
(٢٢) ديوان المتنبي: دار بيروت للطباعة والنشر، حقوق الطبع محفوظة ١٤٠٣-١٩٨٣: ٤٩٥- ٤٩٦.
(٢٣) النثرية في الشعر العباسي : د. محمد تقي جون .صحيفة المثقف ، العدد ٤٥٧٠ المصادف الاثنين ٢٠١٩/٣/١١ م .

إذن دخول النثرية في العصر العباسي شملت أيضاً الشعراء الفحول أمثال المتنبي وأبي تمام والبحتري ولكن بنسب قليلة قياساً مع شعر ابن الرومي وأبي العتاهية وغيرهم من الشعراء.

طغاوة النثرية منذُ القرن الرابع صعوداً

تراجعَ الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري صعوداً،فنجد الألفاظ العامية إذ تختفي لغة الشعر المعروفة في القرون السابقة ونتناول رأي الدكتور محمد تقي جون فيقول:"وإذا تميزت القرون العباسية الثلاثة الأولى بجمعية الأبداع،وكثرة الشعراء الحقيقيين،فهذا القرن صار ينتقي المبدعين ويعيش الباقون عيالاً عليهم. ونلاحظ بوضوح طغاوة النثرية،والألفاظ والأساليب العامية التي ستزداد باطراد لتتته بقايا الطريقة القديمة الحريصة على لغة الشعر.

ويؤشر ظهور شعراء الكدية كساد الشعر في العراق وأيران.ويرجع السبب إلى عدم أهتمام الدول الأعجمية بالشعر العربي،وحالة الفقر الشديد التي تجعل الشعر شبه كمالي،فضلاً عن تراجع المواهب الشعرية نفسها.ولم يعد الشعر بعد زمن الفحول جمهورياً،بل بلاطياً يرضي غرور الحكام فقط." [٢٤]

(٢٤) خلاصة الأدب العباسي أدب الحضارة والحداثة : د . محمد تقي جون ، مؤسسة دار الصادق الثقافية ، ط١ ١٤٣٨ – ٢٠١٧: ٢٢٥ – ٢٢٦.

وتطرق الدكتور علي جواد الطاهر إلى الشعر عند دراسته للعصر السلجوقي فيقول:"بدأ أنحطاط الشعر بعد الشريف الرضي ((ت ٤٠٦ هـ)) أو مهيار الديلمي ((ت ٤٢٨هـ)) فليس بين العدد الضخم من الشعراء من يبلغ صف الشعراء الكبار .والأشعار التي كتبوها تقليد أو أعادة،وتراكيبها أقرب إلى النثر،وعواطفها باردة، وأفكارها مبتذلة.وكإن الشعر صار مهنة سوقية لا حاجة فيها إلى الإلهام.وسبب هذا التراجع يعود إلى جهل الحكام،الجور الأجتماعي،الفوضى الأقتصادية، فقر الشعراء ،التقاليد الأدبية،مفاهيم النقاد،ضعف مواهب الشعراء.فالأرجاني وعشرات الشعراء المعاصرين كانوا يعدون أنفسهم شعراء ويفخرون بذلك،وكان الناس ينظرون إليهم كذلك، فضلا عن النقاد الذين روجوا فساد المقاييس.ولم يبلغ البارزون من شعراء هذا العصر كالطغرائي والأبيوردي وحيص بيص مبلغ الفحول السابقين كابي تمام والبحتري والمتنبي،ولكنهم ألمع شعراء العصر وكتبوا بموهبة معينة ".[٢٥]

ظهرت هذه الطغاوة في شعر القرن الرابع الهجري والقرون التي تلته لأسباب عديدة أهمها الحكام الذين أمتازوا بالجهل وعدم الأهتمام بالعلم والأدب،وكذلك عدم وجود من يراقب الشعر أعتماداً على أساسات الشعر المعروفة بعمود الشعر الذي وضعه المرزوقي فيحدد من خلالهِ جيد الشعر من رديئه.

وكذلك تناول الدكتور علي جواد الطاهر شعراء العصر السلجوقي فيقول:"إنَّ الشائع على عبارة العصر الركة حتى لتقترب أحياناً من لغة التعبير اليومي وتستحيل ضربا من النثر.ولا نستغرب كثيراً إذا قرأنا مثل:

(البسيط)

أنْ عطفت عنكم يوما فان غداً مع الصباح توافيكم أو الأصل

* * **

(الكامل)

يا قاتلي ظلمًاً بسيف صدوده حاشاك تقتلني بلا استحقاق

* * **

(الكامل)

والبشر في وجه الغلام نتيجة لمقدمات ضياء وجه المالك

* * **

(٢٥) الشعر العربي في العراق وبلاد العجم والعصر السلجوقي أواسط القرن الخامس وأواسط القرن السادس: د. علي جواد الطاهر ، دار الرائد العربي ، بيروت – لبنان ، ط١ : ٢٠٥- ٢٠٧.

(البسيط)

لما أماتوه مات الدين وأسفا من ذا الذي بعد (محي الدين) يحييه

وقد يرى بعض الناس في هذه الركاكة سهولة،وهذا صحيح،ولكنها سهولة تعليمية مغرقة،ونثرية مخلة بالشاعرية.وأننا اليوم قد نختلف مع نقاد سابقين في تقدير السهولة،ففي أبيات قالها صردر في الوزير فخر الدولة بن جهير..هي:

(المنسرح)

يَا قَالةَ الشِّعْرْ قَدْ نصَحَتْكُم وَلَيسَ أدْهى إلاَّ مِنَ النُّصْحِ

قدْ ذَهَب الدَّهرُ بالكَرامِ وَفي ذَاكَ أَمَورٌ طويلَة الشَّرْحِ

وَأَنتُمَ تُمدْحَوُنَ بالحُسْن والظَّـ ـرْفِ وَجُوها فِي غايةِ القُبحِ

وَتَطلْبُونَ السَّماح مِنْ رَجُلِ قد طُبعت نفُسه علـى الشُّحِ

مِنْ أجْلِ ذَا تُحْرَمُونَ كِدكـمْ لأنَّكـمُ تِكْذبونَ فـي المَدْحِ

* * **

فَإنْ شَكَكْتم فِيمَا أقُولُ لَكُمْ فَكَذِّبُونِي بَواحِدِ سَمْحِ

نرى انَّها أبيات واضحة جداً،وضوحا يسيء إلى شاعريتها،ويجعلها خطابا في حديث أعتيادي،أو مجادلة في قضية ما..وأنها لو جاءت نثراً لما جاءت على غير هذه الصورة.

وتحدث هذه النثرية كلما ضعفت العاطفة،وضعف الإخلاص في الباعث على النظم – وهذا كثير الوقوع؛وكلما زاول الشعر من لم تتهيأ له الموهبة اللازمة والأصالة الكافية – وهؤلاء كثيرون،حتى أنَّ القارىء ليحسب أنَّ القوم يعدون الشعر لعبا لفظيا يزاوله أي أنسان إذا حذق اللغة والعروض...ولا يشفع لهؤلاء حتى توفر العاطفة،وإلاَّ فأين الشعر في قول ابن ابي الفتوح:

(الكامل)

ياليتَ أني لمْ أَكنْ لكَ والداً وَكذاكَ أنتَ فلم تكن مولودا[٢٦]

(٢٦) الشعر العربي في العراق وبلاد العجم : علي جواد الطاهر، دار الرائد العربي ، بيروت – لبنان ، ط١ : ٤٦٠- ٤٦١-٤٦٢.

أضف إلى ذلك أنَّ الصراع حول موضوع التجديد الذي جعل من الشعر يأخذ من النثر خصائصه،لم يكن فقط بين النَّقاد،وإنَّما هناك صراع يتسم بالصفة النقدية بين الشعراء أنفسهم وقد أشرنا له سايقاً فمثلاً نجد البحتري يوجه نقده إلى ابن الرومي حول طريقته بالإطالة في الشعر ويعني هذا أنَّ ما يريد قوله عن ابن الرومي أنَّ شعره يشبه الخطابة من حيث الوضوح كما قلنا وكثرة التفصيل في الشعر،وإنَّما الشعر حسب رأي البحتري هو عبارة عن لمح أي الأختصار والأيجاز،ونشير في هذا المجال إلى رأي الدكتور ركان الصفدي في كتابه بن الرومي الشاعر المجدد فيقول:"أمَّا الخصومة التي قامت بين ابن الرومي والبحتري فهي ذات أهمية خاصة،لأنها مثلت الصراع بين تيار التجديد الذي ينهل من الثقافة،ويجسد التطور الحضاري للعصر،والتيار المحافظ الذي يتمسك بتقاليد القدماء في الأسلوب الشعري،وفي أستعمال لغة شعرية سائدة.ويلخص البحتري هذا الصراع في معرض هجائه لعبيد الله بن عبد الله بن طاهرالذي وقف مع ابن الرومي في هذا الصراع يقول:

(المنسرح)

كَلَّفتُمونا حُدود مَنطِقكُـــم والشعر يغني عَن صِدقه كَذبهَ

وَالشِعرُ لمحٌ تَكفي إشارتُـهُ وَليسَ بالهَـذر طوَّلَت خُطُبـه(٢٧)

إذن هذه الآراء التي ذكرت تتفق جميعها بأن الشعر العباسي بصورة عامة أخذ من النثر الأطالة والوحدة العضوية والخوض بتفاصيل الفكرة التي يريد الشاعر أنَّ يصلها إلى المتلقي على العكس من الشعر الجاهلي الذي كان يعتمد الشاعر على الأختصار والأيجاز والإيحاء.

(٢٧) ديوان البحتري : دار صادر بيروت : ٢٣٤ .

الخاتمـــة

نتائج البحث :-

١- النثرية التي ظهرت في الشعر العباسي ظهرت بسبب تصاعد النثر وتأثير الكتَّاب على الشعراء .
٢- النثرية دخلت على الشعر لاستعمال الشعراء الافكار الفلسفية .
٣- كثرة الشعراء غير العرب الذين يعانون من قلة الالفاظ ، قاموا بالتعويض عنها باعتمادهم على المعاني .
٤- ظهور شعراء كبار مثل المتنبي ساعد على تراجع النثرية في الشعر العباسي .
٥- طغاوة النثرية ودخولها في الشعر العباسي منذ القرن الرابع والقرون التي تلته ؛ سببه عدم الاهتمام بالشعر والشعراء واصبح الشعر بلاطياً اكثر من جمهورياً .

الهوامش

١- الفن ومذاهبه : شوقي ضيف .
٢- النثر في العصر الجاهلي : هاشم صالح مناع .
٣- من حديث الشعر والنثر: طه حسين .
٤- الفن ومذاهبه : شوقي ضيف .
٥- من حديث الشعر والنثر : طه حسين .
٦- العصر العباسي الاول : شوقي ضيف .
٧- اتجاهات الشعر العربي : محمد مصطفى هدارة .
٨- المصدر نفسه .
٩- بنية القصيدة العباسية : اعداد الطالبين حملاوي مروة ولعور ايمان .
١٠- اتجاهات الشعر العربي : محمد مصطفى هدارة .
١١- عز الدين اسماعيل .
١٢- ينظر : اتجاهات الشعر : محمد مصطفى هدارة .
١٣- العمدة : ابن رشيق القيرواني .
١٤- بنية القصيدة العباسية اعداد الطالبتين حملاوي مروة ولعور ايمان .
١٥- التمرد في شعر العصر العباسي الاول : رسالة الطالب فيصل حسين طحيمر.

١٦- في نظرية الادب من قضايا الشعر : د. عثمان موافي .
١٧- البيان والتبيين : للجاحظ .
١٨- في نظرية الادب : عثمان موافي .
١٩- العمدة : ابن رشيق القيرواني .
٢٠- في نظرية الادب : عثمان موافي .
٢١- العمدة : ابن رشيق القيرواني .
٢٢- في نظرية الادب : عثمان موافي.
٢٣- المصدر نفسه .
٢٤- المصدر نفسه .
٢٥- الشعر والشعراء : ابن قتيبة .
٢٦- خلاصة الادب : د. محمد تقي جون .
٢٧- المصدر نفسه .
٢٨- ديوان لبيد ابن ربيعة .
٢٩- ديوان المتنبي .
٣٠- النثرية في الشعر العباسي : د. محمد تقي جون .
٣١- خلاصة الادب العباسي : د. محمد تقي جون .
٣٢- الشعر العربي في العراق وبلاد العجم : د. علي جواد الطاهر .
٣٣- المصدر نفسه .
٣٤- ديوان البحتري .
٣٥- ابن الرومي الشاعر المجدد : ركان الصفدي .

المصـــــادر

- الفن ومذاهبة في النثر العربي : د. شوقي ضيف ،ط ٣ ، دار المعارف ١٩٦٠م
- النثر في العصر الجاهلي : هاشم صالح مناع ، دار الفكر العربي ، للطباعة والنشر ، القاهرة – مصر .
- من حديث الشعر والنثر : د. طه حسين ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة .
- العصر العباسي الاول: د. شوقي ضيف ، ط ١ .
- اتجاهات الشعر العربي في القرن العربي : محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ القاهرة .
- بنية القصيدة العباسية عند الشعراء المولدين : بشار ابن برد وابي نواس – انموذجاً – اعداد الطالبتين حملاوي مروة ولعور ايمان .
- عز الدين اسماعيل .
- العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده : ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد ، دار الجيل – بيروت ط ٥ ١٩٨١م .
- التمرد في شعر العصر العباسي الاول : رسالة الطالب فيصل حسين طحيمر.

- في نظرية الادب من قضايا الشعر والنثر في النقد الادبي : د. عثمان موافي ، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٠.
- البيان والتبيين : الجاحظ .
- الشعر والشعراء : ابن قتيبة .
- خلاصة الادب العباسي ادب الحضارة والحداثة : د. محمد تقي جون ، مؤسسة دار الصادق الثقافية ، ط١ ، ١٤٣٨هـ – ٢٠١٧ م .
- ديوان لبيد ابن ربيعة .
- ديوان المتنبي .
- النثرية في الشعر العباسي : د. محمد تقي جون ، صحيفة المثقف ، العدد ٤٥٧٠ المصادف الاثنين ٢٠١٩/٣/١١م .
- الشعر العربي في العراق وبلاد العجم : د. علي جواد الطاهر ، دار الرائد العربي ، بيروت – لبنان ، ط١ .
- ديوان البحتري .
- ابن الرومي الشاعر المجدد : ركان الصفدي ، ط١ ، وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٢م .